

ثاموغي

الحاج محمد السعيد تازروت

## إطلالة على الشعر الصوفي القبائلي



بقلم: محمد أرزقي فراد

ferrad.rezki@caramail.com

الأمازيغية مكانها في الدستور الجزائري إلى جنب أختها العربية.

ولا شك أن هذا المسعى سيفتح المجال لترقية الأمازيغية في الاتجاه الصحيح، وهو وعاء الحضارة الإسلامية الذي تنتمي إليه. كما أن هذه الترجمة تعتبر أيضا نداء واسترخا للعالم العربي للفت انتباه أهله أنهم أولى باحتضان الأمازيغية من غيرهم لما بينهما من روابط التاريخ والدين والقرابة. وهكذا فإن مغزى هذه الترجمة أعمق من أن يحصر في الجانب المعرفي فقط، إنها المصالحة مع الذات التي من شأنها أن تسد الذرائع أمام المحاولات الرامية إلى إحداث تصدع في الجدار الوطني المتين.

ونظرا لضيق المجال، فإنني أكتفي بعرض مقطعين إثنين لهذه القصيدة الألفبائية الرائعة على أمل أن تشر كاملة في المستقبل. «بِسْمِ اللَّهِ أَذْفَدُوعُ لِحَرْوُفٍ / أَسْلَاذَنِيكَ يَا رُوُوفٍ / أَيَا حَلَاقُ الْعَطِيمِ / أَدْعَاغِكِيَّ سَبْحَاهِ أَنْتَ لَسِيُوفٍ / ذَكَرَا يَمَعْنَ لِحَرْوُفٍ / أَفُوذَمِيكَ يَكْفَى أَسْخَمِيْمٍ / عَتَقَاعُ ذُقْ أَمْضِيْقِي الْحَوْفِ / أَلُوَيْلُ يَسْكُفُوكُوفٍ / أَهْدِنَا الصَّرَاطِ الْمَسْتَقِيمِ».

●●●●

«باسم الله أبدأ الحروف / بإذنك يا رُوُوفٍ / أيها الخلاق العظيم / دعوتك بالصحابة أهل السيواف / ومن هام في الجروف / بسنائك تزول الحيرة / أعتقنا من مضيق الخوف / والويل الهادر / أهدنا الصراط المستقيم».

●●●●

«الْحَرْفِ أَنْتَ رَفْدَعُ فَلَيفِ / أُوَيْنُ يَلَانُ دُوَظْرِيْفِ / أُوْحَذِيْقِي يَحْرَزُ أُوَالِيْسِ / نَكُ أَقْلِي أَمِيْنُ يَهْرُ وَأَسِيْفِ / بِيْبِيَّتِ ذِي إِتْسَنَاصِيْفِ / أَوْرُ يُوْفَا حَدُ ذَامْعِيُونِيْسِ / وَيِنُ يَطْفَنُ دُوَقْرَارُ أُوْبَسْرُغِيْسِيْفِ / أُوْلَى أَدُوِيْنُ كَيْفِ كَيْفِ / أُوَيْدُ مَا يَسْعَدِيْ إِمَانِيْسِ».

●●●●

«رفعت الحرف ألفا / عبدة لأولى النهى / فإياك واللغو يا لبيب / فأنا أشبه بمن جرفه السيل / حتى بلغ عمقه / دون أن يجد من يمسه به / إلا غريقا بغريق / إنهما في الهم سواء / لكل هاجس يفتيه».

●●●●

«الْحَرْفِ أَنْتَ رَفْدَعُ فَلَيفَا / أَسْرُوْعُ أَيْلِي سَيَا / تَسُوْجِيْشِعُ أُوْلِي رَاثُ أَسُوْفِي / مِي حَزْرَعُ أَحَاْمُ بُو الْقِيَا / مَاْشِي ذَكَرِي إِقِي عَيْبَا / سَتْعَمَارُ أَمُو صَنْدُوْقِي / كَلَّاسُ يِقَارَدُ أَمْرَحَبَا / أُوْلَانْدَا الْغَيْبِي / أَتْرُوِيْحَتُ وَادَاْعُ الْخُلُوْقِي».

●●●●

«رفعت الحرف باء / انفجرت عيوني بكاء / حتى في السوق العامرة ترتعد فرائصي / وكذا في الدار المقبية / الغاصة بالأحباب / بأركانها القوية / تتادي ملحاحة / ليس لك المفر / فيا أيها النفس ودعي الخلق».

واشتهر أهل عرش آت جناد بالهجرة إلى مدينة الجزائر طلبا للرزق، وهكذا فبعد أن قضى بعض الوقت في الإمامة بقرية إخرين، هاجر إلى مدينة الجزائر حيث تعلم مهنة الخياطة ليشتغل بعدها بالتجارة مع أخيه أرزقي.

كان الحاج محمد السعيد في شبابه ميّالا إلى التعبد، فلأزم بعض الوقت الشيخ الصادق وهو في قرية إيسكرين وعنه أخذ ميثاق الطريقة الرحمانية. كما تأثر كثيرا بعلمه الولي الصالح محمد العربي الشريف المشهور بكراماته وكان يصطحبه معه حيث حلّ وارتحل من أجل راب الصدع وإصلاح ذات البين في القرى وهو ما يعد تكويننا ميدانيا له صقل شخصيته الصوفية.

ورغم تحمله مسؤولية إعالة العائلة فقد خصص جزءاً من وقته للتعبد في الخلوة خاصة في تامغوط، وفي هذا الجو الروحاني رزقه الله بكرامة من كراماته بأن سمع صوتا هاتفا يدعو إلى دعم التعبد بالعمل الصالح، وكان ذلك بمثابة الشرارة التي ألهبت موهبته الشعرية المنصبة على الشعر الديني الصوفي الذي صاغه في قصائد عديدة ذات المبنى الجميل والمعنى العميق الذي يستعصي فهمه على العوام.

ورغم صياغة قصائده باللغة الأمازيغية ذات الألفاظ القوية التي يحتاج فهمها إلى الاستعانة بالعارفين لأسرارها والمالكين لخاصيتها، فإن الشحنة الدينية الروحية قد جعلته يوظف أحيانا تراكيب اللغة العربية بشيء من التصرف، وهو الأمر الذي يؤكد فناءه في حب الله ورسوله محمد(ص).

وقضى حياته متنقلا بين مسقط رأسه ومدينة الجزائر إلى أن استقر في هذه الأخيرة أثناء الحرب التحريرية الكبرى، وقد أصابته وبيلات الاستعمار خاصة في جانفي 1957 وهي الفترة التي استشهد فيها ابنه الهاشمي واعتقلت قوات المظلمين الولدين الآخرين: أمحمد والوناس، فيما دخل الولد الرابع بلقاسم إلى المستشفى إثر إصابته بوعكة صحية.

وقد واجه الحاج محمد سعيد هذه المصيبة بريادة الجأش وقوة العزيمة ولسانه حاله يقول: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وهكذا فعلى إثر هذه المصيبة التي جعلته يبقى وحيدا علق بقوله: «أعتبر نفسي غير متزوج وليس لي أولاد».

وقد كتب الله له أن يعيش أجواء أفراح الاستقلال قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى يوم 13 سبتمبر 1963 ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه حيث دفن.

وتعتبر قصيدة «الألفبائية» من أشهر قصائده الدينية وقد وضعها حسب الترتيب القرآني للحروف الهجائية وهو ما يؤكد تعلقه بهذه اللغة، فما أحوجنا إلى إحياء هذا «الزاد الروحي» الذي من شأنه أن يساعد على إنقاذ منطقة القبائل من الضياع والتغريب وفي إعادة التوازن الهوياتي لها.

## أهمية ترجمة هذه القصيدة

## إلى اللغة العربية:

إن الهدف من ترجمة هذه القصيدة إلى اللغة العربية يكمن في ربط الجسور بين اللغتين اللتين يجمعهما حب الإسلام المتين منذ قرون عديدة، وفي إعادة العلاقات بينهما إلى الوضع الطبيعي الذي يتمثل في الإطار التكاملية، خاصة بعد أن تبوّأت اللغة

حفيفة الجنرال راندون، فوجه نحو العرش المذكورة قوات كبيرة ضربت قرى كثيرة كأغريب، ثاقارسيفت وإخريان وثازروتس وثلاثقانا وأذرار ناث قضيبة وأزرومشقان وكان ذلك في جوان 1854، ومما يؤكد عنف وضراوة المقاومة في آت جناد تسجيل الجنرال راندون لهذه المعارك في مذكرته التي جاء في قوله: «...إنه في اليوم الذي استسلمت فيه قبيلة آت جناد، استسلمت معظم القبائل المتواجدة فيما بين بجاية ودلس في القسم المواجه للبحر، وفي أيام قليلة خضعت هذه المنطقة».

ولعل أهم شهادة حول هذه الشخصية ما أدلى به الأستاذ محمد الصالح الصديق الذي عرفه عن كثب في طفولته لاعتبارات عائلية وتعليمية حين قال: (وقد حفظت من شعره أبياتا من صغري يقول فيها: وَيَاكَ أَيُولِيُوْأَنْزُ / أَهَاتُ أَكْتَفَرَزُ / أَنَشَالَلَهُ أَكْدَقْرِي أَسْتَالُوِيْتُ / أُوْرِكْشَقِي حَدَّ مَا يَنْقَرُ / أَدْبِرُوْوْ أَقْلِيْلَرُ / ثِيْفُوْدَمَتْ نَعْ ثِيْنَقْنِيْتِ / وَي لَأَنْ دَلْفَاهَمْ إِمِيْرُ / دَدْنِيَا أَتْرَلَزُ / أُنُوِيْ أَسْ أُنْسَعِي ثَامَدِيْتِ. وهو في هذه الأبيات يخاطب قلبه ويقول: أدعوك قلبي إلى الصبر وشكر المنعم على جلائل نعمه وفضائله، فإذا كانت السماء مغيمة مكفهرة والأفق مظلمًا معتمًا والطريق مسدودًا مبهما، فإن الله رحيم بعباده سوف يبدل حالك البائس بحال سعيدة باسمه، فتتنسى فيها أيامك الشديدة الأولى، ولا تكثرث بمن يطغى ويتجبر ويركب رأسه ويلج في ضلاله وغوايته، فإنه سيسبغ التمرغ في التراب والتقلب على الأرض حينًا على بطنه وحينًا على وجهه، فالكيس اللبيب والعاقل الحاذق من ينظر في العواقب، وينظر في تقلبات الأيام، ويستضيء بتجارب الحياة حتى يدرك أن لكل نهار ليلا يعقبه بظلامه، فلا ينبغي أن يغتر بضوء النهار، فيحسب أن النهار دائم، فالصحة يعقبها المرض والغنى يعقبه الفقر، والقوة يعقبها الضعف، وما الدوام إلا لله وحده).

## نسبه ومولده ونشأته:

هو محمد سعيد بن السعيد بن أرزقي بن محمد بن أعراب بن الولي بن محمد بن سعيد، وينتهي نسبه إلى السيد محمد الشريف الملقب بأبي قبرين، دفن قرية إغيل تازارات (الأربعاء ناث إيراثن)، وثازروت ناث جناد في آن واحد.

ولد الحاج محمد السعيد سنة 1883 بقرية ثازروت ناث جناد، بدائرة أرفون، ولاية تيزي وزو، وهو الإبن الأكبر لعائلة تتكون من ذكزين وأنثيين.

تتلמד على عمه المدعو محمد العربي فتعلم الكتابة والقراءة ثم حفظ ما تيسر من القرآن، ليدررس بعد ذلك نبذة عن سيرة الرسول (ص) ومبادئ الفقه المالكي (سيدي خليل)، وجالس طلبة زاويتي سيدي منصور وثيمليلين الأمر الذي جعله يتشبع بالأخلاق الفاضلة كالجود والكرم ونكران الذات، والتعاون والتضامن.

قضى طفولته وشبابه في قريته، وتحمل مسؤولية إعالة عائلته في السن السابعة عشرة إثر وفاة والده في سن الأربعين، فامتحن الزراعة المعيشية، علما أن قريته تقع في منطقة جبلية تكسوها الغابات، ملائمة لحرفة رعي الماعز، وتفتقر إلى الأراضي الخصبة، لذلك فهي تعد منطقة للطرد البشري،

تعتبر منطقة القبائل قلعة من قلاع التصوف وهذا بفضل نشاط أتباع الطريقة الرحمانية التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان الجرجري في عرش آت سماجيل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وتعد منطقة آت جناد التي ينتمي إليها الحاج محمد السعيد تازروت من المناطق التي تنغص بالمتصوفين لاعتبارات عدة كوجود زاوية سيدي منصور وقصر المرابطين الأشرف وفي مقدمتها قرية إيسكرين. وقد اتخذ المتصوفون من غاية تامغوط مركزا للتعبد في خلوات كثيرة.

## منطقته:

ينتمي الحاج محمد السعيد تازروت إلى أسرة عريقة في العلم والتصوف لها شأن في عرش آت جناد الواقع في دائرة أرفون حالها، وتشتهر هذه المنطقة بكونها منارة من منارات العلم ولعل أشهر مؤسساتها التعليمية زاوية سيدي منصور المؤسسة في القرن السابع عشر، ومن أشهر مراكز التعبد التي يعمرها الصوفية، جامع تامغوط الشاهقة المشهورة بغاباتها الكثيفة والعامرة بشتى الحيوانات المفترسة. ومن أشهر قرى هذا العرش التي كانت تدرس القرآن، قرية إيسكرين، التي أنجبت علماء أجلاء أمثال الشيخ محمد سعيد بن زكري مفتي المالكية في مدينة الجزائر في مطلع القرن العشرين، ومؤلف كتاب: (أوضح الدلائل على وجود إصلاح الزوايا ببلاد القبائل).

ومن أبرز الأعلام الآخرين الذين أنجبتهم منطقة آت جناد الرحالة محمد تازروت الذي جال في آسيا وأوروبا وإفريقيا وألف كتبًا عديدة بالفرنسية والألمانية والإنجليزية خاصة في مجالات الثقافة والسياسة والتاريخ، والموسيقى العالمى إقريوشن محمد، والرسام أمحمد إسيخام، والشاعر يوسف أوقاسي (القرن 17) باللسان الأمازيغي.

كما اشتهر عرش آت جناد بدوره السياسي البارز منذ العهد القديم ومازالت الآثار القديمة قائمة إلى اليوم خاصة في قرية أبيضار.

هذا واشتهر عرش آت جناد بوقوفه في وجه أطماع الأتراك العثمانيين الذين سأل لعابهم على غابات تامغوط التي استغلوا أخشابها لتوسيع العمران وتجديده في مدينة الجزائر. كما انضوت هذه المنطقة تحت لواء إمارة آلا القاضي التي أقامت حامية عسكرية بثامغوط الأمر الذي مكنتها من مراقبة ميناء أرفون.

وعندما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي في جوان 1830 شارك أبناء عرش آت جناد في معركة اسطاوي مشاركة بطولية، وعندما توغلت القوات الفرنسية في أرضهم استماتوا في الدفاع وجرت معارك ضارية رغم تفوق الغزاة في العدة والعدد ودعم السكان معركة بوبغلة بالنفس والنفيس الأمر الذي أثار

ورغم صياغة قصائده باللغة الأمازيغية ذات الألفاظ القوية التي يحتاج فهمها إلى الاستعانة بالعارفين لأسرارها والمالكين لتأصيلها، فإن الشحنة الدينية الروحية قد جعلته يوظف أحيانا تراكيب اللغة العربية بشيء من التصرف

وتعتبر قصيدة «الألفبائية» من أشهر قصائده الدينية وقد وضعها حسب الترتيب القرآني للحروف الهجائية وهو ما يؤكد تعلقه بهذه اللغة، فما أحوجنا إلى إحياء هذا «الزاد الروحي» الذي من شأنه أن يساعد على إنقاذ منطقة القبائل من الضياع والتغريب وفي إعادة التوازن الهوياتي لها.